يوسف كونراد ومذهبه الفني

بقلم

حسن لطفي المنفلوطي

يمتاز يوسف كونراد من بين كتاب القصة الحديثة في انجلترا باتساع في أفق الخيال وقوة الذهن والاخلاص الفني الكامل ، ولا شك في أن هذه المزايا هي التي حالت دون شهرته السريعة . وكان وما زال يعد كاتب الخاصة وان لم تنقصه الشهرة. وهو كاتب خالق مبدع ، انجليزي التربية بولندي الأصل ، وقصصه فريدة في الأدب الانجليزي .

وحياته كانت مليئة بالتقلبات الغريبة . فقد ولد من أسرة بولندية في مقاطعة أوكرانيا عام ١٨٥٦ . وكانت أوكرانيا مقاطعة بولندية وهي الآن من جمهوريات الاتحاد السوفييتي ، وشب هناك في وقت سادت فيه القلائل والاضطرابات ، واشتد فيه النزاع على هذه المقاطعة بين روسيا وبولندا ، وقد توفي والداه على أثر ما لقيا من تشريد وعنت سياسي . فكفله خاله ، وعنى بتربيته ، وأحضر له مربيا ممتازا بعده لدخول جامعة «كركاو» . ولكنه هوى البحر صغيرا ، وأراد أن يكون بحارا يجوب العالم على ظهر السفن ، وبذل أهله كما بذل مربيه جهودا كبيرة في سبيل نزع هذه الرغبة من نفسه ، ولكن دون جدوى . وأخيرا ترك بولندا وهو في سن السابعة عشرة ، وكان على وشك دخول الجامعة ، وسافر الى مرسيليا ، ومن هناك ركب البحر لأول مرة .

وقضى ثلاثين عاما يجوب البحر ، وصل فيها الى أعلى المراتب ، ونال الجنسية البريطانية ، ثم أصيب بمرض اضطر من جرائه الى أن يترك البحر ويستقر فوق اليابسة بقية حياته .

وحدث ان ارسل بعد وصوله الى انجلترا قصة اسماها مبادل الماير الى احد الناشرين ، وكان قد كتبها في اوقات فراغه ، وعلى سنوات عدة ، ودهش عندما قبلها الناشر وطبعها في عام ١٨٩٥ . ومن ذلك اليوم عاش حياة الكاتب الهادىء ، وهي

حياة لم تكن تبشر بها حياته الماضية . ولم يستطع كونراد نفسه ان يعرف ما الذي حرك في نفسه الرغبة في ان يصبح بحارا ، ثم كيف اصبح هذا البحار كاتبا قصصيا.

وكان نجاح قصته الأولى مفاجأة له ، فاستمر في الكتابة ، واستطاع في وقت قصير ان يحدد مبادىء الفن واساليبه . وهذه المبادىء والأساليب هي التي استعملها في حياته الأدبية بعد ذلك .

وتعد مقدمة كتاب « الأسود من النرجس » من أهم (ما كتب عن نظرية الأدب)

وخاصة من ناحية أثرها في الفن القصصي الحديث . وهذه المقدمة تكشف عن الأهداف التي رمى اليها في كتاباته ، والوسائل التي استعملها للوصول الى هذه الأهداف .

وهو يبدأ مقدمته بتعريف واضح للفن ، مقارنا اياه بالفلسفة التي تعالج الأفكار، والعلم الذي يعالج الحقائق والنظريات ، ثم يصل الى نتيجته ويقول :

« ان الفنان لايلمس فينا جانب العقل والحكمة ، وانما يلمس فينا ذلك الجانب الموهوب ، ولذلك فانره أبقى وأخلد . اذ هو يتحدث الى قدرتنا على السرور والتعجب، والى احساسنا بالعطف والشفقة ، والجمال والألم ، والى هذا الاحساس الكامن فينا الذي يربطنا ببقية البشر ... هذا الرباط القوى الدقيق الذي يربط ملايين البشر في احلامهم وآلامهم ، وافراحهم واحزانهم ، وفي الخوف والوجل ، والذي يربط الانسان باخيه الانسان ، ويربط الانسانية كلها ، الميت بالحي ، والحي بالذي لم يولد بعد » .

ثم يتحدث عن القصة ويقول :

« انها تؤثر في المزاج ان اعتبرناها فنا . وهذا ما يجب ان تهدف اليه ، فتشابه في ذلك فني الرسم والموسيقى وكذلك جميع الفنون الاخرى ... انهـا تاثير مزاج واحد في آلاف الأمزجة ... مزاج فيه قوة طامحة ، يهب الحوادث الجارية معناها الحقيقي ، ويخلق من هذه الحوادث الغطة والحكمة ، ويضفي على الزمان والمكان الجو ـ العاطفي . ويجب ان ينقل الينا هذا الأثر خلال الحواس حتى يكون فعـالا . وفي الحقيقة لا يمكن ان ينقل الينا هذا الأثر الا بهذه الوسيلة ، لأن المزاج ، سواء أكان فرديا أم جماعيا ، لا يصنع لقوة الاقناع . فجميع الفنون تؤثر أولا في الشعور . ولهذا ينبغي ان تهدف الكلمة المكتوبة التاثير على الشعور اذا كنا نريد أن نصل بها الى المنابع السرية للعواطف الايحائية . ويجب أن يطمح الكاتب في أن يكون في أدبه المرونة التي نجدها في فن النحت ، والألوان التي نراها في فن الرسم . وقدرة فن الموسيقى الايحائية . وهـذا لا يتأتى الا بالاخـلاص التام في خلق مزيج كامل من الشكل والمادة ، وبالعناية التامة بتكوين الكلمات وترتيبها، وباستعمال الضوء الايحائي العجيب الذي يضفي نورا على الكلمات العادية والألفاظ القديمة التي صمرت وطمست معالمها بفعل الزمان وسوء الاستعمال » .

« والسبيل امام كاتب النثر هو أن يسعى سعيا متواصلا الى الابداع والخلق ، سائرا في هذا الطريق غير عابئ بالجهد والتعب ، او النقد واللوم ، وان يكون جوابه على القارئ النقص الذي يبحث في القصة عما يستمد منه الشجاعة أو العزاء ، وعما يسليه او يخيفه ، وعما يثير عجبه أو دهشته ، هو هذا ان هدفي الذي أسعى الى تحقيقه هو أن أجعلك بقوة الكلمات المكتوبة تسمع وتشعر وفوق ذلك ترى ، وهذا كل شيء ، فان نجحت في ذلك ، فسوف تجد ما تريد من تشجيع وعزاء ، ومن حوف وتسلية ... تجد كل ما تريد ، وتجد فوق ذلك شيئا أنت تنشده ... تجد قبسا من الحقيقة » .

وكل قصة كتبها كونراد ان هي الا دليل على اخلاصه للمثل التي وضعها نصب عينيه ، وقد اراد ان يهب في القصة ما في فن النحت من مرونة ودقة وبروز . وجرت عادة كبار الكتاب أن يدرسوا شخوصهم دراسة دقيقة وافية . ويحاولوا تصوير مادرسوه بأن يقصوا القصة بضمير المخاطب او الغائب ، ولم يخرج كونراد في ذلك عن تقاليد كتاب القصة ، ولكنه رأى أن طريقة العرض هذه لاتفي بما يريد من صدق في التصوير ودقة في الوصف . فاخترع شخصية « الكابتن مارلو » . ومارلو هذا رجل قد ترك سن الشباب ومارس الحياة وعركها ، ثم اعتزلها ، وان لم يفقد العطف على الانسان . وتجد هذه الشخصية لأول مرة في قصة « اللورد جيم » ، فلا يحدثنا المؤلف ، انما يحدثنا مارلو عما رأى وسمع . وساعد هذا على بعث الدم الحار في شخصية اللورد جيم ، وفي ابرازها . وان كنا نجد بعض الاضطراب في هذه القصة فلانها تجربة .

ثم خطا كونراد بعد ذلك خطوة اخرى في قصة « فرصة » فاظهر لنا حوادث القصة وشخوصها معكوسة في اكثر من ذهن واحد . فاستعمل اربعة قصاص . وهي طريقة يتجنبها اغلب كتاب القصة لما فيها من صعوبات ولما تحتاجه من عناية ودقة . وكان نجاحه فيها رائعا حتى ان القارئ لايحس بأن المؤلف قد بذل جهدا ما . وهذه القصة عمل فني رائع والشخصيتان الاساسيتان فيها « فلورا وكاتن انتولي » قد صورتهما يدان بارعتان . وهما اكثر من تمثالين ، فقد وهبا الحركة والاحساس وتحركا وسط عالم من الحقيقة .

ويعتمد كونراد في أدبه اعتمادا كبيرا على الحواس ، ويثير خيال القارئ فيجعله « يحس ويسمع ويفوق ذلك يرى » . وهو نحات ماهر في تتبع الخطوط والمنحنيات ، وموفق في اختيار الوانه ، ودقيق في وصف الصوت والذوق والرائحة ، وبذلك يتطلب من القارئ مجهودا وتركيزا وخيالا في تتبع تفاصيل قصصه . فاذا استطاع القارئ أن يقوم بمثل هذا المجهود ، وجد أن هذه القصص فريدة ، وتركت في نفسه من الأثر مالايحسه الا فيما رأى وسمع ، بل يشعر بأنها تجاربه الخاصة التي لاتزول ذكراها من نفسه سريعا .

ويعتبر كونراد مثل رائع للخروج عن القومية ، فلغة طفولته وشبابه كانت البولندية ، وظلت كذلك داخل نفسه الا اثناء العمل والدراسة ، فقد احتلت اللغة الفرنسية مكانها ، وقد تاثر تاثيرا كبيرا بهذه اللغة وعاداتها الذهنية ، وتعلم اساليبه الفنية على يد اساتذة المدرسة الطبيعية الفرنسية ، أما اللغة الانجليزية فقد تعلمها بعد ذلك واستعملها بعد نضجه ، وكتب بها مؤلفاته وقد اصبحت هذه اللغة بفضل موهبة نادرة قادرة على الاستيعاب في يده اداة طيعة للتصوير الأدبي فمفرداته وتعابيره تكشف عن ثروة اللغة الانجليزية في المفردات والتعابير أكثر مما تكشفها كتابات كبار الكتاب الانجليز أنفسهم ، وتدل على سروره بالكلمات وحرائتها وعلى عرامه بانواع الصفات ، كما تدل على الجهود الكبيرة الفنية التي بذلها في تعلمها والتدرب على الكتابة بها .

وقصصه تخلو من النقد ، فهو لايقترح اصلاحا ولا يحتفل متسلا ، ولا يوجه لوما الى احد ، ولا يحيد عيلا ما ، بل هو فنان لايخضع للحياة ، بل يخضعها له ، ومن هذه الناحية يسمى كاتبا واقعيا ، ولكن واقعية كونراد اوسع مما اعتاد عليه أصحاب المذهب الطبيعي الذي تأثر به ، فلم يكتف بتصوير حقائق الحياة السطحية بتفاصيلها الدقيقة ، بل هو أكثر من ذلك ، فقد وهبته حياة البحار القاسية والعيش بين المغامرين الذين يسعون الى الثروة ويتكالبون على جمعها باى الوسائل ، ورؤية اساليب استغلال الانسان لاخيه الانسان ، وتجاربه بين مختلف الأجناس في مختلف البلاد ، وهبه كل هذا اتساعا في أفق التفكير وبصيرة في ادراك الحقائق ، وعمقا للقوى النفسية وأنواع الضعف الانساني ، كان يرتب أخيرا الحقيقة التي يختارها من هنا وهناك بشكل منظور ، ويربط بينها وبين الحياة بوجه عام .

وقد نجد في قصصه شيئا من الفردية والغموض والاحساس بالقدر ، وهذا يرجع الى طبيعته الصقلبية ، وأثر الأدب الروسي عليه ، ولكن هذا لا يعني انه كاتب خيالي ، فهو يقدم لنا الحياة كما هي ، متبعا في ذلك المدرسة الطبيعية الفرنسية مع تعديله لها ، فلا تجد بين شخوصه أبطالا ، وقد رسم هذه الشخوص دون ان يعنى جنسا او لونا او طبقة اجتماعية ، ولا يوجد بين هذه الشخوص المختلفة تشابه ، ولا يجمعهم شيء غير انهم مضطرون جميعا الى الصراع ضد قوة ليست خيرة ، وهذه القوة حقيقة غير خيالية ، تؤثر في حياة الانسان اينما كان .

ولا يظهر كونراد الانسان نفسه في صراعه مع هذه القوة ، بل على العكس من ذلك ، فقد رأى وهو بحار كيف يتحد البحارة ضد الرياح عندما تثور ، فيظهر هذا الاتحاد ما في نفوسهم من عواطف نبيلة ، وهذه القوة التي تحلب الشقاء على الانسان انما تنشأ داخل الانسان نفسه ... من طبعه ونفسه مما يجعله حائرا حسودا .

ويمكننا ان نقسم قصصه الى ثلاث مجموعات ، تحتوي المجموعة الأولى على أربع قصص ، تعرض الحياة في جزر الهند الشرقية ، الى حيث رحل الانسان الابيض

بحثا وراء الثروة ، تاركا خلفه في بلاده عشاء المدنية الرقيق الذى كان يرتديه خوفا من القانون والمجتمع ، وستبد به روح الجشع والطمع والاستهتار بكرامة الانسان وروحه . وهذه القصص هي : مباذل المايز ، والأسود من الرجس ، ومنبوذ الجزر ، واللورد جيم .

وفي هذه المجموعة الثانية قصة واحدة وهي nostromo وتعتبر أفضل قصصه في رأى بعض النقاد ، اذ هي ملحمة كاملة ، تعرض الحياة الحديثة حينذاك وما تسيرت به من روح المادة والاستغلال . ونكاد نجد فيها جميع العواطف البشرية من نجاح واخفاق ، ومن حب وبغض ـ ومن وطنية وأنانية ، ونجد فيها ان مناجم «سنت توميه» هي رمز للقانون والنظام ، كما هي سبب للثورات والمآسي والبؤس والشقاء . وقد خلق المؤلف في هذه القصة جمهورية في امريكا الجنوبية وأسكنها بالرجال والنساء ، فمنها سكانها الأصليون ، ومنهم خليط من الاسبان والهنود الحمر ، كما فيها أوربيون من جنسيات مختلفة ، ألقت بهم المقادير الى ذلك المكان ، ورجال آخرون جاءوا سعيا وراء الثروة . وتكشف القصة عما في حياتهم من أحداث ومآس .

والمجموعة الثالثة تضم أربعة قصص اهتم فيها المؤلف بالحياة في أوربا ، وشخصياتها قليلة ، وهي كالعادة واضحة المعالم تدب فيها روح الحياة .

وأخيرا نصل الى المجموعة النهائية وهي تضم قصتين وهما «فرصة» و«انتصار» ونجد كونراد في هاتين القصتين قد نضج فكره وزاد اهتمامه بمصير الانسان . وما زال واقعيا وما زالت الوانه زاهية صادقة ، ومعالجته لموضوعاته معالجة بارعة ولكننا نجد فيها ظلالا قاتمة تشبه الظلال التي تلقي بها السحب على الأرض ، فتحجب الشمس ودفئها . ويتضح في هاتين القصتين روح التشاؤم واليأس من الانسان لخشعه وطمعه .

ولا يهتم كونراد بأثر هذا الطمع على الطامعين ، ولكن بأثره على غير الطامعين والأنانيين ، ويعتبر أن الشر هو القوى التي تحطم رباط الصداقة والمحبة بين الناس ، ويرينا أن مأساة الانسان هي أن نجد نفسه يعيش بين الناس وقد فقد الثقة بهم ـ وان كان الشر هو القوة التي تفرق بين الانسان وأخيه الانسان . فهناك قوى أخرى تقربهم وتلم شملهم ، وهي قوى المحبة والولاء والاخلاص ، والمحاماة المشتركة أمام الخطر المشترك . ويظهر لنا كونراد في هاتين القصتين داعيا بشر تآلف القلوب البشرية .

وطبيعي أن تسود فلسفته تلك الروح الصوفية ، فهو ابن رجل قد نفي سياسيا وعن شعب لاقى الوان العذاب والاضطهاد على يد القياصرة الروس ، يحن الى الوحدة والتضامن ويكره الطامع والغاصب ويقول ، ان من يقرأ قصصي يعرف

معتقداتي . فالعالم الرمسي يعتمد على افكار بسيطة جدا تشبه في قدمها الجبال ... ويعتمد على فكرة الاخلاص ، ولا شيء يثير اخلاص الانسان لاخيه الانسان ، ولو كان في ذلك ثورة على العدالة .

وكتب هذا في مذكراته «مذكرات خاصة» وكان مخلصا في سرد ذكرياته ، في هذه المذكرات عظيما في وصفها وتحليلها . ينتقل بنا فيها من لندن العابسة الى سهول بولندا الفسيحة وقد غطتها الثلوج البيضاء ، ثم الى أنهار المناطق الاستوائية حيث تسود الحرارة وتنتشر الأمراض والحميات ، ثم الى مرسيليا حيث ركب البحر لأول مرة ، فشاهد منازلها القديمة المتداعية ، ونرى حاجز المياه والأرصفة وقصر « ايف » كلها غارقة في ضوء القمر الفضي .

وكتابه الاخير « خط الظلال » هو كتاب شيخوخته . ويعد بمثابة اعترافات وتجارب شخصية . وكتبه بلغة عامية على غير عادته . ويمتاز هذا الكتاب الأخير بالهدوء والحزن . وهو يحتوي على أفضل ما في نفسه . ونرى من خلال حديثه الذي يسير بالغموض روحا قوية لم تهرمها أحداث الزمان ، ونلمس في وضوح عقيدته أن كل ما يمر بالانسان من آلام ، انما يزيد من قوته الروحية ، مما يتم مؤمنا بتآلف القلوب البشرية .

ومات هذا الكاتب في عام ١٩٢٤ . ودفن في احتفال مهيب . ثم أسدل عليه ستار النسيان ، فلم يقدره الشعب الانجليزي حق قدره لانه كان غريبا عنه بأحاسيسه وشعوره وبأعماله وأفكاره . ولكنه ظل حيا بل تزداد قيمته يوما بعد يوم في أنحاء العالم وخاصة في الجامعات والاكاديميات والأوساط الثقافية وعند كتاب القصة ودارسيها ، وذلك لما في أساليبه الفنية من قيمة كبيرة ولما لمذهبه في القصة من أثر في تطور القصة الحديثة .